مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: ** عدد: ** السنة **** E-ISSN:2588-2325

الوافدون على مدينة ورقلة بين الاندماج والاغتراب وحتمية التعايش دراسة انثروبولوجية

Arrivals on the city of Ouargla between integration and alienation and the inevitability of coexistence Anthropological study

بلال بوجراف*، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر boudjouraf.bilel@univ-ouragla.dz

تاريخ الإرسال: 2020/04/03 تاريخ القبول: 2020/10/24 تاريخ النشر: 2020/12/08

ملخص:

عرفت الحواضر الصحراوية الجزائرية بتجانسها الاجتماعي الذي تشكله تلك المجموعات التقليدية من بدو رحل ومستقرين بالواحات، إلا أن مدينة ورقلة يمكن أن تعتبر استثناء، فهي المدينة التي شهدت تاريخيا توافد أعداد كبيرة من السكان المنتمين لمناطق وإثنيات مختلفة، وهو ما تشهده أيضا في حضريتها المعاصرة، إن موقعها كملتقى للطرق الصحراوية وازدهارها الاقتصادي جعلها بمثابة العاصمة الصحراوية التي تجذب أعداد كبيرة من الوافدين بحثا عن فرص العمل، ومن التجار والمستثمرين، سنتطرق في هذه الدراسة لهذه المجموعة الجديدة وتواجدها الاجتماعي في مدينة ورقلة، وسنختبر ميدانيا وأنثروبولوجيا بعض مؤشرات الاندماج والاغتراب والتعايش بين " الوافدين " والمجموعات التقليدية.

الكلمات المفتاحية: مدينة ورقلة، الوافدون، الصحراء الجزائرية، الاندماج، التعايش.

Abstract

The Algerian desert cities were known for the social homogeneity that these traditional groups constitute from nomads and settled in oases, but the city of Ouargla can be considered an

* المؤلف المرسل

exception, as it is the city that historically witnessed large numbers of people coming from different regions and ethnicities, which is also witnessed in its contemporary urbanization, if Its location as a meeting place for desert roads and its economic prosperity made it as the desert capital that attracts large numbers of expatriates in search of job opportunities, and from merchants and investors, we will discuss in this study this new group and its social presence in the city of Ouargla, and we will test m In terms of anthropology, there are some indicators of integration, alienation, and coexistence between "expatriates" and traditional groups.

key words: Ouargla, the arrivals, Algerian desert, integration, coexistence.

مقدمة :

إن الحديث عن الحضرية ونمط حياة الاستقرار في الصحراء الكبرى يبرز لنا عاصمة هذه الحواضر، وأكثرها عمرانا وشهرة وكذلك كثافة سكانية، إنها مدينة ورقلة أو "ورجلان " كما عرفت تاريخيا، إنها ذلك الميناء الصحراوي الذي تلتقي فيه الطرق الرئيسية بالصحراء، وتلك الواحة الغناء التي لا تنقطع مياهها الجوفية عن بعث الحياة في وسط صحراء قاحلة، هذه المكانة الرائدة عاشتها ورقلة لقرون، ثم لتضعف هذه المكانة وتعرف فترة ركود وتراجع خلال القرنيين 18 و19 ميلادي بسبب تفكك النظم الاجتماعية التقليدية التي شهدها العالم مع بزوغ الحضارة الغربية الحديثة، ووصول الاحتلال الفرنسي لورقلة والسيطرة عليها، ويأبى التاريخ إلا أن يعيد نفسه لتتبوأ هذه المدينة مكانتها التاريخية من جديد، كنتيجة لاكتشاف النفط بها سنة 1956 م، وتحولها لأهم قطب اقتصادي وصناعي في الجزائر، يجذب آلاف الوافدين من مختلف المناطق بحثا عن العمل، حتى تحولت هذه المجموعة الاجتماعية " الوافدين " لأحد مكونات المجتمع الورقلي، وبلغ عددهم ما يقارب أو يفوق نصف سكان المدينة، سنحاول في هذه الدراسة التعريف بهذه المجموعة، وتصنيف أهم أنشطتها المهنية وتحليل المعيش اليومي، وتواجدها كهوية اجتماعية، وكذلك علاقاتها الاجتماعية العامة بالمجموعات التقليدية، ومدى الاندماج والتعايش في المجتمع الورقلي العام، بالاعتماد على البحث الأنثروبولوجي الميداني والمعايشة، فإلى أي مستوى تحقق اندماج الوافدين في مدينة ورقلة؟ وما هي أهم ملامح ومؤشرات التعايش مع المجموعات التقليدية؟

1. مدينة ورقلة " عاصمة صحراء الجزائر":

غنية بمواردها المائية قوية بواحاتها، وموقعها بصفتها مفترق طرق، مدعمة بوجود الحوض البترولي، كل هذه العوامل أكسبت ورقلة الأسباب التي تمكنها من أن تصبح مركزا حضاريا عظيما، المدينة لا تحتل موقعا اعتباطيا من منطقة وادي مية، لقد تموضعت في حوض ورقلة إنها مدينة مفتوحة وغنية بالمياه[2].

في سنة 1959 م رقيت ورقلة إلى مركز مقاطعة (عمالة) للواحات، تغطي النصف الشرقي للصحراء الجزائرية، ومنذ 1974 و1984 م فإن تقسيم المقاطعة إلى 10 ولايات، دفع بالسلطات لأن تقرر إنشاء تنسيقية ما بين الولايات لبعض المؤسسات، وبالطبع اختيرت ورقلة لتقوم بهذا الدور، فهي مقر محافظة برنامج منطقة الجنوب الشرقي، والمقر الجهوي للديوان الوطني للإحصاء (ons)، ومقر الوكالة الوطنية للموراد المائية، ومحافظة التنمية الفلاحية في المناطق الصحراوية، فضلا على أنها مقر الناحية العسكرية الرابعة، (تنضوي تحت سلطتها 6 ولايات)، كما نجد عددا من المديريات الخدمية (الخزينة، الجمارك، الضرائب) وعدد من الوكالات الجهوية للمؤسسات التي استعادت عبرها ورقلة ثانية وظيفة جهوية تامة، وفي نفس الوقت، فإن الاكتشافات البترولية ابتداء من 1956م، أدت إلى أن تتخصص ورقلة وحاسي مسعود في مجال الهيدروكربونات التي بعثت نموا في هذين المركزين الحضريين وفي المنطقة (بنى تحتية وتجهيزات)، وبقوة عددية للسكان 250.000 نسمة (وما يقارب 680266 نسمة سنة 2017، الدليل الإحصائي2018)، عادت ورقلة لتصبح ثانية المدينة الأكثر اكتظاظا من حيث السكان في الصحراء الجزائرية – إذا استثنينا بسكرة – وبكل هذه المعطيات احتلت مرتبة العاصمة الصحراوية[3].

2. الوافدون " البرانية ":

إن موقع مدينة ورقلة المحوري في الصحراء الجزائرية جعلها طيلة تاريخها الطويل منطقة جذب واستقطاب للسكان، فبعد تأسيس القصر العتيق – المدينة التاريخية - ثم بداية قدوم القبائل الهلالية في منتصف القرن 11 م عرفت مدينة ورقلة ازدهارا اقتصاديا تمثل في نشاط تجارة القوافل،

[2] مارك كوت، الجغرافيا المصغرة لمنطقة ورقلة، ترجمة: الهادي دادن، منشورات جمعية الثقافة والإصلاح، ورقلة، الجزائر، 2006، ص 11.

[3] المرجع نفسه، ص 38.

وتجارة العبيد والذهب مع بلدان السودان الغربي، وكذلك توفرها على الأمن مقارنة بمدن الشمال التي كانت قليلا ما تشهد فترات استقرار بسبب الصراعات التي كانت تنشب بين الدويلات الناشئة، هذه العوامل الثلاثة – الموقع المحوري والازدهار الاقتصادي والأمن – جعلت من مدينة ورقلة قبلة للوافدين من مختلف المناطق والبلدان المحيطة بها. مع نهاية القرن 18 م وإلى غاية أواخر المرحلة الاستعمارية شهدت مدينة ورقلة فترة ركود اقتصادي بسبب تلاشي تجارة الذهب والعبيد، وسيطرة الاحتلال الفرنسي على الطرق التجارية الرئيسية في الصحراء، إلا أن التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه، لتتبوأ مدينة ورقلة مكانتها من جديد، فاكتشاف حقول النفط سنة 1956م، واختيارها بعد الاستقلال لتكون كعاصمة للجنوب، ومقر للناحية العسكرية الرابعة، ومقر مختلف المديريات الجهوية، أعاد لها حيويتها الاقتصادية، لتتحول مرة أخرى إلى منطقة جذب واستقطاب للوافدين بحثا عن فرص العمل، التي توفرها الشركات البترولية ومختلف المشاريع التنموية التابعة لها، بل أصبحت تستقطب حتى المستثمرين في الأنشطة التجارية المختلفة من كل مناطق الوطن وكذلك أصحاب المهن اليدوية والأعمال الحرة.

خلال فترة التسعينيات تزايد عدد الوافدين على مدينة ورقلة، نتيجة الاضطرابات الأمنية التي عرفتها مدن الشمال خلال العشرية السوداء، فمدن الصحراء الجزائرية كانت آمنة مقارنة مع مدن الشمال خلال هذه العشرية من سنة 1990 م إلى سنة 2000، وقد فضل أكثرهم الاستقرار بورقلة حتى بعد عودة الأمن إلى مدنهم الأصلية.

3. البراني " هوية اجتماعية ":

إن الوافدين اليوم أصبحوا مجموعة اجتماعية فاعلة بمدينة ورقلة، و" البراني " نمط هوية اجتماعية بالإضافة لنمط " البدو المتوطنين " و" الوراقلة " – المجموعات التقليدية بمدينة ورقلة -، لا توجد إحصائيات رسمية حول عددهم، ولكن يمكن تقديرهم بحوالي نصف سكان مدينة ورقلة – حسب تقدير السيد رئيس مكتب الدراسات بالديوان الوطني للإحصاء فرع ورقلة- (أي مجموع الوافدين يساوي تقريبا عدد سكان القبائل الأربعة المتوطنة بورقلة، سعيد ومخادمة وبني ثور والشعانبة بالإضافة إلى سكان القصر العتيق) فحي سكرة مثلا، هو أكبر حي من حيث عدد السكان بمدينة ورقلة، حيث قدر عددهم بـ 13979 نسمة في آخر إحصاء سنة 2008 وقدر بـ 15866 نسمة

سنة 2017[4]، وأكثر من 90 % من سكان هذا الحي الغير مخطط وافدون من مختلف مناطق الوطن، بالإضافة إلى حي النصر – الخفجي – الذي يعتبر المدينة الجديدة لورقلة، يتواجد به كذلك عدد معتبر من الوافدين لتوفر مساكن للإيجار والبيع به، فأكثر من 60 % من سكانه وافدين، وقدر عدد سكانه في إحصاء 2008 بـ 6200 نسمة [5]، إلا أن هذا العدد تضاعف عدة مرات بسبب توزيع آلاف السكنات الجديدة به – عمارات متعددة الطوابق – منذ 2008 إلى غاية اليوم، وحسب رئيس مكتب الدراسات بالديوان الوطني للإحصاء بورقلة فإن عدد سكانه يقدر سنة 2017 بـ أكثر من 40000 نسمة [6]، بالإضافة للوافدين المتوزعين بنسب متفاوتة في أحياء مدينة ورقلة المختلفة، كحي لا سيليس، والشرفة، وبامنديل، وحي بوزيد وغيرها.

يمكننا أن نصنف مجموعة الوافدين من حيث الأنشطة المهنية كالآتي:

- المشتغلون بمختلف الأنشطة التجارية: السوافة وبني ميزاب والشاوية وبالأخص تجار ولاية باتنة.
- القبايل: والكثير منهم موظفون رسميون في مختلف الشركات، ومنهم من هو مستثمر في بعض الخدمات كالمطاعم والمقاهي والفنادق وغيرها.
- المشتغلون بالأعمال اليدوية والمهن الحرة: وأكثرهم من ولاية جيجل، وبريكة، وتبسة، والجلفة.
- الموظفون في قطاع التربية والتعليم: من مختلف ولايات الوطن.
- الموظفون في أسلاك الأمن والجيش: وعددهم كبير أيضا باعتبار مدينة ورقلة مقر للناحية العسكرية الرابعة، ويتواجد بها ما يقارب الـ 50 ثكنة عسكرية.
- طلبة الجامعة: وهم من الولايات والمدن القريبة من ورقلة كتقرت وغيرها، والكثير منهم يستقر بورقلة بعد التخرج من أجل العمل. في السنوات الأخيرة عرفت مدينة ورقلة إقبال عدد كبير من المهاجرين الأفارقة، واختاروا الاستقرار بمدينة ورقلة بعدما كانت بالنسبة لهم محطة عبور لمدن الشمال، ثم الهجرة إلى أوروبا، وهم اليوم يستغلون كعمال في ورشات البناء.

4. الوافـدون والمعيش اليومي:

في التعبير العامي المتداول بورقلة " البرانية " هم الوافدون الذين قدموا من خارج المدينة، ويتعلق الأمر هنا بالمسيرة التي حدثت طوال النصف الثاني من القرن العشرين بكامل الصحراء،

[4] دفتر الإحصاء الخامس للسكن والسكان 2008 ولاية ورقلة، الديوان الوطني للإحصاء، الفرع الجهوي بورقلة، ص 24.
[5] المرجع نفسه، ص 34.
[6] مقابلة بتاريخ: 2019/11/13,

والناجمة عن التحولات التي أدخلها المستعمر، أو الاستثمار التنموي من طرف الجزائر المستقلة، والأمر يتعلق – أكثر من ذلك – بحركات الهجرة المتولدة عن الاقتصاد النفطي، الذي جلب لورقلة وحاسي مسعود أعداد معتبرة من الكوادر للادارة – الإطارات – والموظفين المؤهلين للشركات البترولية، وأيدي عاملة غير مؤهلة لكل المشاريع الكثيرة التي أفرزها هذا النشاط.

بالإضافة لدور الجامعة (30.000 طالب حيث 5/1 منهم من خارج الولاية) وكذلك الجيش الوطني الشعبي (المتواجد بقوة بورقلة مقر الناحية العسكرية الرابعة حوالي 50 ثكنة بولاية ورقلة لوحدها)[7].

سبق وأن عرفنا أن مدينة ورقلة خلال تاريخها الحضري الطويل كانت مدينة استقطاب وجذب للوافدين، بسبب موقعها المحوري الذي تلتقي به الطرق الصحراوية القديمة، الخاصة بالقوافل التجارية وقوافل الحجيج، وكذلك باعتبارها بوابة السودان الغربي مصدر تجارة العبيد والذهب خلال القرون الوسطى، والمكان المفضل للباحثين عن الأمن والفارين من الاضطرابات التي عرفتها مدن الشمال، ثم لتشهد خلال القرن 19 والنصف الأول للقرن 20 حالة ركود وتراجع، ثم تأتي اكتشافات حقول النفط سنة 1956 لتعيد لها مكانتها الاقتصادية من جديد، وتستقطب الشركات البترولية، ومختلف المشاريع التنموية في كل القطاعات الكوادر واليد العاملة، وخلال الأزمة الأمنية التي عرفتها البلاد أو ما يعرف بالعشرية السوداء (1990 – 2000) كانت مدينة ورقلة منطقة آمنة مقارنة مع المدن الشمالية، وهو ما دفع بعدد كبير من سكان الشمال للقدوم لورقلة والإقامة بها، والكثير منهم فضل الاستقرار بها حتى بعد عودة الأمن ونهاية الأزمة.

إن هؤلاء الوافدين اليوم على مدينة ورقلة عدد معتبر، يصل تقريبا إلى نصف سكان المدينة، فالوافدون اليوم مجموعة اجتماعية فاعلة، إن " البرانية " في المعيش اليومي انتماء و" هوية اجتماعية " تتجلى بوضوح في مقابل " الوراقلة " والقبائل البدوية المتوطنة (سعيد والمخادمة والشعانبة وبني ثور)، إن مختلف مناطق الوطن متقاربة كثيرا اجتماعيا وثقافيا، إلا أن المدن الصحراوية لها خصوصيتها التاريخية والسوسيوثقافية، إن الإقامة بمدينة ذات تركيبة قبلية كمدينة ورقلة يجعل من الاندماج ليس بالأمر السهل، وقد يبقى الشعور بالاغتراب ملازم للوافدين لسنوات، إن نسبة 100 % من العينة الخاضعة للمساءلة (عددها 86 مفردة - حصة الوافدين)، تقيم بأحياء لا تحمل هوية قبلية، كالخفجي وسكرة، ويندر أن تجد وافد يقيم بحي سعيد عتبة أو المخادمة مثلا، إن اختيار

[7] مارك كوت، مرجع سابق، ص 16، 17

مكان الإقامة قد تتحكم به بعض العوامل التقنية كالقرب من مكان العمل مثلا، أو توفر الإيجار، ولكن أهم معيار يحدد من خلاله الوافد مكان إقامته هو سهولة الاندماج الاجتماعي، وتوفر التجانس بين سكان الحي، كأن يكون غالبية سكان الحي من الوافدين، وهو ما يفسر الإقبال الكبير للوافدين على أحياء مثل الخفجي وسكرة وحي بوزيد و بامنديل.

لم يجد 97 % من مفردات العينة أي صعوبة في الاندماج في المجتمع الورقلي العام، بينما عبر 3 %، عن بعض الصعوبات، كالنظر إليهم على أنهم السبب في بطالة كثير من شباب المدينة، وواقعيا قد يكون لهذه النظرة جانب من الصواب في حالة مدينة حاسي مسعود ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه بالأخص على مدينة ورقلة بالنظر إلى الأعمال التي يشتغل بها الوافدين، وهي معظمها أعمال ومهن حرة واستثمارات شخصية، وهي بمنطق الاقتصاد " رؤوس أموال " تخلق الثروة وتوفر مناصب العمل وتساهم في التنمية الاقتصادية لسكان المنطقة. المجتمع الورقلي رغم تركيبته القبلية إلا أنه مجتمع متفتح على الآخر، ولا يجد في تواجد الوافدين أمر غير مقبول، فتاريخ المدينة والتي كانت لقرون بمثابة " ميناء في الصحراء " جعلها ترث تقاليد حضارية عريقة في التعامل مع الوافدين.

إن العلاقات الاجتماعية اليوم بين الوافدين والمجموعات الأخرى بمدينة ورقلة، لم تقتصر على علاقات الجيرة، والصداقة، والزمالة في العمل، بل أخذت هذه العلاقات أشكالا أكثر عمقا، فالتحولات الحضرية التي تعرفها مدينة ورقلة جعلت من نمط الزواج الخارجي، أمرا مقبولا وله شرعيته الاجتماعية، فـ 48 % من أسر العينة، متكونة من زوج من الوافدين وزوج من سكان ورقلة، وهو مؤشر قوي على مدى الاندماج الموجود، والتعايش بين مختلف المجموعات الاجتماعية بمدينة ورقلة في إطار المجتمع الوطني العام.

جـدول أنمـاط الـزواج لعينـة الدراسـة

نمـط الزواج	زواج داخلـي		زواج خـارجـي	
إنتماء الأسرة	المجمـوع	النسبة المئوية	المجمـوع	النسبة المئوية
الـوافدين	41	% 47.67	45	% 52.33

5. سمـــات النمـــط الحضـري للوافـــدين:

إن النظم الاجتماعية التي تمارسها كل مجموعة اجتماعية بالإضافة للقيم الثقافية التي تحملها تنتج لنا نموذج ثقافي، ونمط حضري يتجلى في تلك الملامح والسمات التي تظهر في مختلف التفاعلات اليومية، وفيما يأتي أهم السمات التي تميز الوافدين بمدينة ورقلة:

- الإقامة بالأحياء ذات التركيبة الاجتماعية المتنوعة، كحي النصر " الخفجي " وحي سكرة، وحي بوزيد وغيرها.

- الاندماج الكلي في النسق الاقتصادي الجديد، والعمل في مختلف الأنشطة التجارية والخدماتية ومختلف الوظائف والمهن الرسمية وغير الرسمية.

- الاندماج في المجتمع الورقلي العام، وتأسيس شبكة علاقات جيدة كعلاقات الجيرة والصداقة والزمالة في العمل، وحتى علاقات الزواج والمصاهرة.

- عدم الانقطاع الكلي عن المناطق الأصلية لهم، والاستقرار الكلي بمدينة ورقلة لغالبية الوافدين.

خاتمة:

إن المكانة الحضرية لمدينة ورقلة في الصحراء الكبرى جعلها تعرف بـ " الميناء الصحراوي " فهي ملتقى الطرق الصحراوية، والواحة الشاسعة الغنية بمياهها الجوفية الهائلة، كانت حاضرة ورقلة تاريخيا وجهة مفضلة للوافدين، وهي كذلك حتى في وقتنا المعاصر، فتوفر الأمن وموقعها كملتقى للطرق الصحراوية وهمزة وصل بين حواضرها، وديناميكيتها الاقتصادية وما توفره من فرص عمل وأنشطة تجارية مختلفة، كل هذه العوامل هي التي جعلتها تعرف عدد كبير من الوافدين، الذي يتعدى عدد سكانها من المجموعات التقليدية، ورغم كل ذلك فالتعايش والاندماج بين مختلف المجموعات الاجتماعية أهم ملامح حضريتها، فالتعايش مع الوافدين ليس بالشيء الجديد على سكانها، إن هذا التعايش وما نتج عنه من تثاقف موضوع جدير بالدراسة والبحث لاستشراف ملامح الحضرية الجديدة لهذه المدينة الصحراوية.

قائمة المراجع:

1. الديوان الوطني للإحصاء. دفتر الإحصاء الخامس للسكن والسكان 2008 ولاية ورقلة، الفرع الجهوي بورقلة.
2. كوت، مارك . الجغرافيا المصغرة لمنطقة ورقلة، ترجمة: الهادي دادن، منشورات جمعية الثقافة والإصلاح، ورقلة، الجزائر، 2006.